سمُوُّ الفقر[1]
في المصلح الاجتماعيِّ الأعظم
ـ ١ ـ

كان النَّبيُّ ﷺ على ما يصفُ التَّاريخُ من الفقر ، والقِلَّة ، ولكنَّه كان بطبيعته فوق الاستغناء ، فهو فقيرٌ لا يجوزُ أن يُوصفَ بالفقر ، ولا تناله المعاني النَّفسيَّةُ التي تعلو بعَرَضٍ من الدُّنيا ، وتنزلُ بعَرَضٍ ، فما كانت به خَلَّةٌ تُحْدِثُ هَدْماً في الحياة ، فيُرَمِّمَها المال ، ولا كان يتحرَّكُ في سَعْيٍ يُنْفِق فيه من نفسه الكبيرةِ ؛ ليجمعَ من الدُّنيا ، ولا كان يتقلَّب بين البعيد والقريبِ من طمَعٍ أدرك ، أو طمعٍ أخفق ، ولا نظر لنفسه في الحِسْبَةِ ، والتَّدبير لِتَدِرَّ معيشتُه فيَحْتَلِبَها ذهباً ، أو فضَّة ، ولا استقرَّ في قلبه العظيم ما يجعلُ للدِّينار معنى الدِّينار ، ولا للدِّرهم معنى الدِّرهم ؛ فإنَّ المعنى الحيَّ لهذا المال هو إظهارُ النَّفس رابِيةً متجسِّمةً في صورةٍ تكبَر على قدرٍ من السَّعَةِ ، والغنى ؛ والمعنى الحيُّ للفقر من المال هو إبرازُ النَّفسِ ضئيلةً منزَوية في صورةٍ تصغُرُ على قدرٍ من الضِّيق ، والعُسْرة .

إنَّ فقرَهُ ﷺ كان من أنَّه يتَّسعُ في الكونِ ، لا في المال ، فهو فقرٌ يُعَدُّ من معجزاته الكبرى التي لم يتنبَّه إليها أحدٌ إلى الآن ، وهو خاصٌّ به ، ومن أين تدبَّرته ؛ رأيتَه في حقيقته معجزةً تواضعت ، وغيَّرت اسمهَا ، معجزةً فيها الحقائقُ النَّفسيَّةُ ، والاجتماعيةُ الكبرى ، وقد سبقتْ زمنهَا بأربعةَ عَشرَ قرناً ، وهي اليوم تُثبت بالبرهان معنى قوله ﷺ في صفةِ نفسِه : « إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاة »[2] .

نحن في عصرٍ تكاد الفضيلةُ الإنسانيَّةُ فيه تَلْحَقُ بالألفاظِ التَّاريخيَّة التي تدلُّ على ما كان قديماً . . . بل عادت كلمةً من كلمات الشِّعر تُرادُ ؛ لتحريك النَّسيم اللُّغويِّ الرَّاكدِ في الخيال ، كما تقول : السَّحابُ الأزرق ، والفجرُ الأبيض ، والشَّفَقُ الأحمر ، والتَّطَاريفُ الورديةُ على ذَيْلِ الشَّمس ، وأصبح النَّاسُ ينظرُ أكثرُهم إلى

---

(١) انظر صفحتي (٢٣٥ ، ٢٤١) من : حياة الرافعي . (س) .

(٢) رواه الحكيم الترمذي في : نوادر الأصول (٢٩٣) وانظره في : صحيح الجامع الصغير (٢٣٤٥) .

أكثرِهم بأعينٍ فيها معنىً وحشيٌّ لو لَمسَ ؛ لضَرَبَ ، أو طَعَنَ ، أو ذَبَح .

وعَمِلتِ المدنيَّة أعمالَها فلم تزد على أن أخرجت الشَّكلَ الشِّعريَّ لإنسانها الفَنِّيِّ مُتهافِتاً تَرفاً ، ونعمةً ، وافتناناً بين ذلك من أيسر الحلال إلى الفظيع المُتَفَاحِش في الإباحة ؛ فكأنَّما وضعت المدنيَّة عقلاً في وحْشٍ ، فجاء ؛ وقد زاغتْ فيه الطَّبيعة من ناحيتين ؛ ثُمَّ قابلته بالشَّكل الوحشيِّ لإنسانها الفقير ، فكأنَّما نَزَعَتْ عقلاً من إنسانٍ ، فجاء ، وقد ضَلَّتْ فيه الطَّبيعةُ من ناحيتين ؛ وكان مع الأول سَرَفُ الهوى بالطَّبيعة ، وكان مع الثاني بالطَّبيعة سَرَفُ الحماقة .

وقد أصبح مِنْ تهكُّمِ الحياة بأهلِها أن يكونَ الفقيرُ فقيراً ؛ وهو يعلم : أنَّ صناعتَه في المدنيَّة عَمَلُ الغِنَى للأغنياء . . . وأن يكون الغَنيُّ غنيّاً ، وهو يعلم : أنَّ عملَه في المدنيَّة هو صنعةُ الفقرِ لضميره !

وخرجتْ من هذا وذاك مسائل جديدةٌ في فلسفة المُعَايَشَةِ الإنسانيَّة ؛ الَّتي يسمُّونها « الاجتماع » إلى أسئلةٍ كثيرةٍ لو ذهبنا نعدُّها ، ونصِفُها ؛ لطال بنا القول ، وكلُّها عاملةٌ على نزع الشُّعور العقليِّ من الحياة ؛ لتظهرَ أسخفَ ممَّا هي ، وأقبحَ ممَّن كانت ؛ حتى أصبحت الشَّمسُ تَطْلُعُ تمحو ليلاً عن المادَّة ، وتُلقِي ليلاً على النَّفس ، في حين : أنَّ الدِّين ، والإنسانيَّة لا يعملان غيرَ بثِّ هذا النُّور العقليِّ في الأشياء ، والمعاني لتظهرَ الحياةُ مضيئةً ملْتَمِعةً ، فتصبح أوضحَ ممَّا هي في نفسها ، وأجملَ ممَّا هي في الطبيعة .

في مثل هذه النزَعات المتقاتِلَةِ الَّتي صَعِدَتْ بالفلسفة ، ونزلَتْ ، وجعلتْ من العلم في صدر الإنسانيَّة ملء سماءٍ من الغُيوم بسوادها ، ورعْدها ، وصواعِقها ، وتركت العالَم يضجُّ ضجيجَه المزعجَ في قلب كلِّ حيٍّ حتَّى لَتُذَاعُ الهمومُ إلى قلوب النَّاس إذاعة الأصواتِ إلى أسماعهم في « الراديو » . . . في مثلِ هذا البلاء الماحقِ تتلفَّتُ الإنسانيَّةُ إلى التَّاريخ تسأله درساً من الكمال الإنسانيِّ الْقديم تَطِبُّ منه لهذه الحماقات الجديدة ، ولو علمتْ ؛ لعلمتْ : أنَّ درسَ هذا العصر في علاج مشاكِله الإنسانيَّةِ هو « محمَّد » ﷺ ، الذي لن يبلغَ أحدٌ في وصفه الاجتماعيِّ ما بلغ هو في قوله : « إنَّما أنا رحمةٌ مُهْدَاة »[1] .

* * *

(١) سبق تخريجه .

هذا المُصْلِحُ الاجتماعيُّ الأعظم يُلقِي فقرهُ الْيومَ درساً على الدُّنيا العلميَّةِ الفلسفيَّة ، لا من كتابٍ ، ولا فكرٍ ، ولكن بأخلاقه ، وعملِه ، وسيرتهِ ؛ إذ ليس المصلحُ مَنْ فكَّر ، وكتب ، ووعظ ، وخطب ، ولكنَّهُ الحيُّ الْعظيمُ الذي تلتمسهُ الفكرة الْعظيمةُ ؛ لتحيا فيهِ ، وتجعلَ له عُمراً ذِهْنِيّاً يكونُ مُصرَّفاً على حكمها ، فيكونُ تاريخه ، ووصفُهُ هو وصفَ هذه الْفِكْرة ، وتاريخَها .

وما كان محمَّدٌ ﷺ إلا عمراً ذِهْنِيّاً مَحْضاً ، تمرُّ فيه المعاني الإلهية ؛ لتظهرَ للنَّاس إلهيَّةً مفسَّرةً . وكلُّ حياته ﷺ دروسٌ مفنَّنَةٌ مختلفةُ المعاني ، ولكنَّها في جملتها تخاطب الإنسانَ على الدَّهر بهذه الجملة : أيُّها الحي ! إذا كانت الحياة هنا ؛ فلا تكن أنت هناك ؛ أي : إذا كانت الحياة في الحقيقة ؛ فلا تكن أنت في الكَذِبِ ، وإذا كانت الحياة في الرُّجولة البصيرةِ ؛ فلا تكن أنت في الطُّفولة النَّزِقة ، فإنَّ الرَّجلَ يَعْرِفُ ، ويُدْرِك ، فهو بذلك وراء الحقيقيِّ ، ولكنَّ الطفلَ يجهلُ ، ولا يعرفُ الدُّنيا إلا بعينيه ، فهو وراء الوهم ، ومن ثَمَّ طيشُه ، ونَزَقُه ، وإيثارُه كلَّ عاجلٍ ؛ وإن قلَّ ، وعملُه أن تكونَ حياتهُ النَّفسيَّةُ الضَّئيلةُ في مثل توثُّبِ أعضاء جسمه ، حتَّى كأنَّه أبداً يلعبُ بظاهره وباطنِه معاً . .

أيُّها الحيُّ ! إذا كانت الحياةُ هنا ؛ فلا تكن أنت هناك ؛ أي : الحياةُ في ذاتِك الدَّاخليةِ ، وقانونِ كمالها ، فإذا استطعتَ أن تُخْرِجَ للأرض معنىً سماويّاً مِنْ ذاتك ؛ فهذا هو الجديدُ دائماً في الإنسانيَّة ، وأنت بذلك عائشٌ في القريبِ القريبِ من الرُّوح ، وأنت به شيءٌ إلهيٌّ ؛ وإذا لم تستطع ، وعشتَ في دَمِكَ ، وأعصابك ؛ فهذا هو القديم دائماً في الحيوانيَّة ، وأنت بذلك عائشٌ في البعيدِ البعيدِ من النَّفس ، وأنت به شيءٌ أرضيٌّ كالحجَرِ ، والتُّراب .

هنا ؛ أي : في الإرادة الَّتي فيك وحدك . ولا هناك ؛ أي : في الخيال الَّذي هو في كلِّ شيءٍ . وهنا ، في أخلاقك ، وفضائِلك ؛ الَّتي لا تَدفعُك إلى طريقٍ من طرق الحياة إلا إذا كان هو بعينه طريقاً من طرق الهِداية ، والحكمة ، وليس هناك في أموالك ، ومَعَايِشِك ؛ الَّتي تجعلك كاللِّص مندفِعاً إلى كلِّ طريقٍ متى كان هو بعينه طريقاً إلى نَهْبَةٍ ، أو سرقةٍ . هنا في الرُّوح ؛ إذ تشعر الرُّوحُ : أنَّها موجودةٌ ، ثُمَّ تعملُ ؛ لتثبتَ : أنَّها شاعرةٌ بوجودها ، ماضيةٌ إلى مصيرها منتهيةٌ بجسدها إلى الموت الإنسانيِّ على سُنَّة النَّفس الخالدة ؛ وليس هناك في الحِسِّ ؛ إذ يتعلَّق الحسُّ

بما يتقلَّب على الجسم ، فهو مهتاجٌ لشعوره بوَشْكِ فَنائه ، فلا يُحْدِثُ إلا الألم ؛ إن نال ، أو لم ينلْ ، وهو مُنْتَهٍ بجسمه إلى الموتِ الحيوانيِّ بين آكلٍ ومأكولٍ على سُنَّة الطَّبيعة الفانية .

أيُّها الحيُّ ! إذا كانت الحياةُ هنا ؛ فلا تكن أنت هناك .

* * *

إنَّ الحكيم الَّذي ينظر إلى ما وراء الأشياء ، فيتعرَّفُ أسرارَها لا تكونُ له حياةُ الَّذي يتعلَّقُ بظاهرها ، ولا أخلاقُه ، ولا نظرتُه ، هذا الأخيرُ هو في نفسه شيء من الأشياء له مظهرُ المادَّة ، وخِداعُها عن الحقيقة ؛ وذلك الأوَّلُ هو نفسُه سرٌّ من الأسرار ، له رَوْعَةُ السِّرِّ ، وكشفُه عن الحقيقة . ولهذا كان في حياة الأنبياء ، والحكماء ما لا يُطيقه النَّاسُ ، ولا يَضْبِطونه ؛ إذ تكلَّفوه ، بل يَنْخَرِقُ عليهم ، فيكونُ منه العجز الغَلَط ، ويَحْدُثُ من الغلط الزَّلَل .

ونظرةُ نبيِّنا ﷺ إلى هذه الوجوه نظرةٌ شاملةٌ مدرِكةٌ لحقيقة اللانهاية ، فيرى بدايةَ كلِّ شيء ماديٍّ هي نهايتُه في التَّوِّ ، واللحظة ، فلا وجودَ له إلا عارضاً مارّاً ، فهو في اعتباره موجودٌ غيرُ موجود ، مبتدِئٌ منتهٍ معاً ؛ وبذلك تَبْطُلُ عنده الأشياء المادِّيَّةُ ، وتأثيرُها ، فلا تتَّصلُ بنفسه العاليةِ إلا مِنْ أضعف جهاتها ، ويجدُ لها النَّاسُ في حياتهم الشَّجرةَ ، والفرعَ ، والثَّمرة ، وما لها عنده هو جِذْرٌ ، ولا فرعٌ ؛ وبهذا لم يَفْتِنْهُ شيءٌ ، ولم يتعلَّق به شيءٌ .

وكانت الدُّنيا تطولُ النَّاسَ ، وتتقاصرُ عنه ، وكانت منقطعةَ النَّماء ، وهو ذاهبٌ في نموِّه الرُّوحيِّ ، وكأنَّما هو صورةٌ أخرى من آدمَ (عليه السلام) ؛ فكلاهما لَمَسَ بنفسه الحياةَ جديدةً خاليةً ممَّا جمع فيها الزَّمنُ ، وأهله من طمعٍ ، وشَرَهٍ ، وجاء آدمُ ليُعطِيَ الأرضَ ناسَها من صُلْبه ، وجاء محمَّدٌ ليُعطِيَ النَّاسَ قوانينَهم من فضائله ؛ فآدم بشخصه هو دنيا بُعِثَتْ لتتَّسع ، ومحمَّدٌ بشخصه هو دنيا بُعِثَتْ ؛ لتنتظم .

وماذا يُفْهَم من الفلسفةِ الأخلاقيَّةِ النَّبويَّةِ العظيمة ؟ يُفهم منها : أنَّ الشَّهواتِ خُلِقَت مع الإنسان تتحكَّم فيه ؛ لينقلبَ بها إنساناً يتحكَّم فيها ؛ وأنَّ الإنسانَ الصَّحيحَ الَّذي لم تُزَوِّرْه الدُّنيا ، يجب أن يكونَ ذا روحٍ ، يمتدُّ ، فَيفيضُ عن غايات

جسمه إلى ما هو أعلى ، فأعلى حتَّى يُصبحَ في حكم النُّور ، وانطلاقِه وحرِّيته ، ولا ينكمشُ فيحصره جسمُه في غاياته وضروراتِه ، فيرتدُّ إلى ما هو أسفلَ أسفلَ حتَّى يعودَ في حكم التُّراب ، وأسرِه ، وعبوديَّته . فالفقرُ ، وما إليه ، والزُّهْدُ وما هو بسبيلٍ منه ، والانصرافُ عن الشَّهوات ، والرَّذائل ، كلُّ ذلك إن هو إلا تَراجُعُ النَّفسِ العالية إلى ذاتها النُّورانيةِ حالاً بعد حالٍ ، وشيئاً بعد شيءٍ ، لتُضيء على المادَّة ، فتكشفَ حقائقَها الصَّريحةَ ، فلا تُباليها ، ولا تقيمُ لها وزناً . فبينما النَّاسُ يَروْن الأموالَ ، والشَّهواتِ مادَّةَ حياةٍ ، وعملٍ ، وشعورٍ ، تراها هي مادَّةَ بحثٍ ، ومعرفةٍ ، واعتبارٍ ليس غير ؛ وبهذا تكون النَّفسُ العظيمةُ في الدُّنيا كأستاذ المعمل : تدخلُ المادَّة إلى معمله ، وهي مادَّةٌ ، وفكرةٌ ، وتخرج منه ، وهي حقيقةٌ ، ومعرفةٌ ، وعلى أيِّ أحوالها ؛ فهي تُحَسُّ في ذلك المعمل بأصابعَ علميَّةٍ دقيقةٍ ليس فيها الجمع ، ولا الحرص ، ولكنْ فيها الذِّهنُ ، والفكر ؛ وليس لها طبيعةُ الرَّغبةِ ، والغفلة ، ولكن طبيعةُ الانتباه والتحَرُّز ، وليست في أسْرِ المادَّة ، ولكنَّ المادَّةَ في أسرها ما شاءت .

ولا يسمَّى فقره ﷺ زُهداً ، كما يظنُّ الضُّعفاء ممَّن يتعلَّقون على ظاهر التَّاريخ ، ولا يحقِّقون أصولَه النَّفسيَّة ؛ وأكثرهم يقرأ التَّاريخَ النَّبويَّ بأرواحٍ مظلمةٍ تريهم ما ترى العينُ إذا ما اختلط الظَّلامُ ، ولَبِسَ الأشياء ، فتراءت مُجْمَلَةً لا تفصيلَ لها ، مُفْرَغَةً لا تَبْيِينَ فيها ؛ وما بها من ذلك شيء ، غير أنَّها تتراءى في بقيَّةٍ من البصر ، لا تَغْمُرها .

وهل الزُّهدُ إلا أن تطردَ الجسمَ عنكَ ، وهو معك ، وتنصرفَ عنه ، وهو بك متعلِّقٌ ؟ فتلك سخريةٌ ، ومُثْلَة ، وفي رأيي تشويهٌ للجسم بروحه ، وقد تنعكسُ ، فتكونُ من تشويه الرُّوح بجسمها ؛ فليس يعلم إلا اللهُ وحدَه : أذاك تفسيرٌ لإنسانية الزَّاهد بالنُّور ، أم هو تفسيرٌ بالتَّراب ؟

ولقد كان ﷺ يملك المالَ ، ويَجِدُه ، وكان أجوَدَ به من الرِّيح المرسَلَة ، ولكنَّه لا يدعُه يتناسلُ عنده ، ولا يتركه يَنْبُتُ في عمله ، وإنَّما كان عملُه ترجمةً لإحساسه الرُّوحيِّ ؛ فهو رسولٌ تعليميٌّ ، قلبُه العظيمُ في القوانين الكثيرةِ من واجباته ، وهو يريد إثباتَ وحدةِ الإنسانيَّة ، وأنَّ هذا الإنسانَ مع المادَّة الصَّامتة العمياء مادةٌ مفكِّرةٌ مميِّزة ، وأنَّ الدِّينَ قوةٌ روحيَّةٌ يلقى بها المؤمنُ أحوالَ الحياة ،

فلا يثبت بإزائها شيءٌ على شيئيّته ؛ إذ الرُّوحُ خلودٌ ، وبقاءٌ ، والمادَّةُ فناءٌ ، وتحوُّلٌ ، ومن ثَمَّ تخضع الحوادثُ للرُّوح المؤمنة ، وتتغيَّر معها ، فإن لم تخضَع ؛ لم تُخْضِعْها ، وإن لم تتغيَّر الرُّوحُ بها ، وأساسُ الإيمان : أنَّ ما ينتهي لا ينبغي أن يتصرَّفَ بما لا ينتهي .

ما قيمةُ العقيدةِ إلا بصدقها في الحياة ، وأكثرُ ما يَصنع هذا المالُ : إمَّا الكذبَ الصُّراحَ في الحياة ، وإمَّا شُبهةَ الكذب ؛ ولهذا تنزَّه النَّبيُّ ﷺ عن التعلُّق به ، وزاده بعداً منه : أنَّه نبيُّ الإنسانيَّة ، ومثَلُها الأعلى ، فحياته الشَّريفةُ ليست كما نَرى في النَّاس : إيجاداً لحلِّ مسائل الفرد ، وتعقيداً لمسائل غيره ، ولا توسُّعاً من ناحيةٍ ، وتضييقاً من النَّاحية الأخرى ، ولا جمعاً من هنا ، ومنعاً من هناك ؛ بل كانت حياته بعد الرِّسالة منصرفةً إلى إقرار التَّوازنِ في الإنسانيَّة ، وتعليم الجميع ـ على تفاوتهم ، واختلافِ مراتبهم ـ كيف يكون لهم عقلٌ واحدٌ من الكون ، وبهذا العقل الكونيِّ السَّليم ترى المؤمنَ إذا عَرَضَ له الشَّيء من الدُّنيا ؛ يفتِنُه ، أو يَصْرِفه عن واجبه الإنسانيِّ ـ أبتْ نفسُه العظيمةُ إلا أن ترتفعَ بطبيعتها ، فإذا هو في قانون السُّموِّ ، وإذا المادةُ في قانون الثِّقَل ؛ فيرتفعُ ، وتَتَهَاوَى ، ويصبح الذَّهبُ ـ وإنَّه ذَهَبٌ ـ وليس فيه عند المؤمن إلا روحُ التُّراب .

* * *